التراث الإفريقي والعولـمة

أ.د منصف بكاي
مدير مخبر "دراسات إفريقية"

تمهيد :

الثقافة جزء لا يتجزأ من هوية أي بلد أو قارة خاصة إذا كان الأمر يتعلق بقارة تسمى إفريقيا أو كما يحلو للبعض تسميتها بالقارة السمراء.

إن المتتبع للدراسات التي تناولت الشؤون الإفريقية يلاحظ بأن هناك إجحافاً في حق ثقافة شعوبها خاصة تراثها الذي تعرض لشتى أنواع التهميش والتخريب والنهب والطمس. وكل ما تناولته هذه الدراسات والتي للأسف الشديد لم يتناولها أبناؤها الحقيقيون هي عبارة عن شذرات من تاريخ عميق وطويل تعرض للتشويه من طرف الدول الإستعمارية التي عملت على محو تاريخ ونضال رجالات المقاومة الإفريقية عبر مختلف الحقب الزمنية. وعليه، فإن الوقت قد حان لكي يكتب بأقلام أبنائها الأوفياء حفاظا على تراثها وهويتها.

شهد نهاية القرن العشرين ثورة في عالم المكتبات والمحفوظات، ومن بين ميكانزمات هذه الثورة، ظهور الكمبيوتر مما جعل البعض يعتقد أن ظهوره قد يجعل المكتبات تستغني عن الورق، بل أن موت الكتاب قد يصبح أمرا محتوما. واليوم تبين لنا أن هذا الجهاز ما هو إلا صديق يقدم خدمات جليلة في كل المجالات. فلم يقتصر الأمر على أن الكمبيوتر لم يؤد إلى فناء الكتاب، بل أنه على النقيض من ذلك يتيح للجميع فرص الإنتفاع بما تحتوي عليه مكتبات العالم ومحفوظاته من وثائق ومؤلفات، بينما أصبح هو بحد ذاته موضوعا لآلاف الكتب والمجلات.

وتلعب التكنولوجيات السمعية البصرية دورها هي الأخرى، ولاسيما مسجل الكاسيت والفيديو اللذين يؤديا دورا حيويا في المحافظة على التراث

المنقول للكثير من ثقافات العالم لاسيما الثقافة الإفريقية التي بقي جزء كبير منها في طي النسيان.

والجدير بالذكر أن وراء هذه الأجهزة ذلك الجهد الكبير الذي يبذله في التفكير والتصميم علماء أوتوا الذكاء والعبقرية. ومن هذا المنطلق، نتساءل عن أهمية المحفوظات بالنسبة لإفريقيا بصفة عامة، والجزائر بصفة خاصة، للحفاظ على ثقافتها الثرية التي ساهمت كثيرا في إثراء الثقافة العالمية ولاسيما الحضارة العربية الإسلامية .

ولإعطاء الموضوع حقه، تتبادر إلى الذهن مجموعة من التساؤلات

ماهي الأسباب التي جعلت القارة السمراء تتخلف في مجال المحافظة على تراثها الثري؟ وما هي مكانة إفريقيا في هذا المجال في ظل العولمة؟ هل هنالك حلول ممكنة للمحافظة على تراث القارة لتحدي الألفية الثالثة ومواكبة العولمة ؟

1- أسباب ضعف تقاليد الحفظ في إفريقيا.

تعاني إفريقيا اليوم من ضعف في مجال نظم الحفظ في ماضيها وما ترتب من نتائج خطيرة انعكست على تاريخ شعوبها. وقد ظلت إفريقيا متأخرة في هذا المجال مما أدى إلى عواقب وخيمة أثرت على مكانة إفريقيا في الساحة الدولية.

ويمكن تعريف تقاليد الحفظ ببساطة أنها حرص ثقافي على حفظ السجلات تترتب عليه القدرة على الإمساك بزمام الماضي عبر الوثائق المحفوظة. وعليه، يمكننا القول أن تأسيس دور المحفوظات الوطنية غير كاف بل يعني نزوعا ثقافيا إلى تسجيل تواريخ الميلاد، عقود الزواج، وجمع الخرائط وحفظ الرسائل المتبادلة بين الأحياء، إضافة إلى العقود وما شابه ذلك. إن الاعتناء بإنشاء المتاحف ودور المحفوظات يهدف أساسا إلى إحياء التاريخ الاجتماعي الذي نحن بحاجة ماسة إليه في ميدان البحث مع الاستعانة

بالوثائق على اختلافها من صور وبطاقات بريدية وخطابات ورسائل وأقوال يدلى بها شفهيا، إضافة إلى أن مخابر الترميم ومخابر التصوير هي من الوسائل الضرورية لتدعيم البحث العلمي.

ونظرا لضعف تقاليد الحفظ في إفريقيا ضعف تراثها وضمرت لغاتها وتراثها الفلسفي وقد أفضى ذلك إلى نتائج مروعة عانت منها شعوب القارة السمراء عبر قرون.

وإذا تسألنا عن الأسباب التي من أجلها كانت تقاليد الحفظ ضعيفة في إفريقيا وجدنا أولها يتجلى في أن معظم الثقافات الإفريقية الأصلية تأبى أن ترى الماضي على أنه زمن ولى أو الحاضر على أنه زمن عابر. إن أسلافنا مازالوا يقيمون بيننا وسنغدو بدورنا أسلافا. وإذا لم يكن الحاضر زمنا عابرا، فما هي الجدوى إذن من تجشم العناء لتسجيله وحفظه؟

ومن أسباب ضعف تقاليد الحفظ في الثقافات الإفريقية هو ضعف التراث التقويمي (بما في ذلك التوقيت بالساعة). فكثير من الشخصيات التاريخية والزعماء في إفريقيا مثلا ما كانوا يعرفون متى ولدوا بالضبط (اليوم والشهر مثلا)، ومن هذه الشخصيات نذكر أبو شيري بن سليم الحرثي الذي قاد انتفاضة الساحل التنزاني ضد التواجد الإمبريالي الألماني في الفترة الممتدة من سنة 1888 إلى غاية سنة 1890 أو زعيم ثورة الواهيهي مكواوا الذي تزعم الثورة ضد الإمبريالية الألمانية من سنة 1891 إلى غاية 1898 بتنزانيا أو مقاومة ساموري توري للإمبريالية الفرنسية بساحل العاج في نهاية القرن التاسع عشر.

وفي الوقت الذي يوجد فيه تقويم جريجوري [1] وتقويم إسلامي [2] وتقويم هندي وتقويم صيني، لا يوجد تقويم إفريقي عدا التقويم المسيحي الأرتذكسي المعدل في إثيوبيا.

ومن أسباب ضعف تقاليد الحفظ أيضا، هو ضعف الكلمة المكتوبة، ذلك أن الكثير من المجتمعات الإفريقية لم تبدأ تعرف الكلمة المكتوبة إلا أثناء

القرن الماضي أي إبان التواجد الإمبريالي الأوربي في إفريقيا. ولكن ما لمقصود بالوثيقة؟ يقصد بها على وجه الخصوص الكلمة المكتوبة، إضافة إلى رسوم وصور ونقوش على الصخور. بيد أن أقدم أشكال التوثيق على الإطلاق هو ذلك المتعلق بالذاكرة الفطرية للإنسان.

والجدير بالذكر أن إفريقيا تأثرت بمشكلة التوثيق بطريقتين أساسيتين، تتمثل أولهما في نقص فادح في مجال الأثار المكتوبة، وثانيهما في وجود فائض في مجال الذاكرة الفطرية للإنسان. ويمتد النقص الفادح في الوثائق أيضا إلى مجال الآثار المكتوبة. فإذا أردنا إجراء مقارنة بين ثقافات إفريقيا وثقافات العالم الكبرى، يتضح لنا جليا أن ما لدى ألأولى من سجلات مدونة إنما هو دون متوسط ما لدى غيرها. [3] وكان من شأن هذا الافتقار إلى المادة المكتوبة أن أدى إلى افتراض ظل قائما زمنا طويلا مؤداه أن افريقيا قارة بلا تاريخ. وعليه، تتبادر إلى الذهن عدة تساؤلات في هذا السياق. هل هذه الصورة الثقافية السلبية هي التي حكمت على الأفارقة أن يعيشوا حياة هامشية زجت بهم إلى نير العبودية؟ هل انبثقت فكرة الاستعمار من مبدأ التفوق العنصري للشعوب على حساب شعوب أخرى؟ هل كان الافتقار للوثائق سببا في جعل القارة السمراء متخلفة؟ لماذا وقع اختيار الأوربيين على الأفارقة ليتخذوا منهم عبيدا؟ لماذا لم يستعبد العرب أو سكان آسيا؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات، يتوجب علينا تصفح تاريخ إفريقيا لتسليط الضوء على بعض الحقائق التاريخية التي ساهمت في إضعاف قدرات الأفارقة وزعزعة كيانهم ومحاولة طمس ثقافتهم الثرية، إضافة إلى أسباب أخرى نذكر منها أن عمق القرة السمراء ظل لزمن طويل مجهولا إلى حد كبير، وأن التضاريس والمناخ هما عاملان حالا دون تمكن الأوربيين من استكشاف إفريقيا كلية. وعليه، يمكننا القول أن تاريخ إفريقيا يكاد يكون مجهولا إلى حد كبير خصوصا إذا ما علمنا أننا نعتمد أساسا في بحوثنا على مصادر أوربية والشيء القليل من المصادر الإفريقية، وأن الكثير من الوثائق لم تدرس أو لم تحظ بعناية وافية في مجال البحث مما جعل إفريقيا حاليا

تحتاج إلى مؤرخين وباحثين من أجل إنقاذ تراثها ومصادرها التي يجب أن تستعمل في مجال الدراسة إذا كانت لا تريد أن يبقى ماضيها مجهولا أو محتكرا على الباحثين الأوربيين.

ومما يجدر ذكره أن الكثير من المؤرخين الأوربيين ساهموا في بلورة فكرة أن إفريقيا السوداء ليس لها تاريخ، والكثير من هؤلاء المؤرخين كانوا يدرسون في أرقى الجامعات كأكسفورد وكيمبريج وباريس. وكان أساتذة التاريخ الأوربيين المتخصصين في مجال تاريخ الحقب الاستعمارية يرون عدم جدوى دراسة ماضي إفريقيا، وكان على رأسهم ايجرتون، أستاذ التاريخ بجامعة أكسفورد الذي كان من بين أولائك المؤرخين الذين يرون مجيئ الأوربيين إلى إفريقيا كان بهدف نشر الحضارة وحفظ الأمن في مجتمعات غير متجانسة ومتأخرة إلى أبعد الحدود حتى أنهم نعتوا القبائل الإفريقية بالقبائل المتوحشة [4]، في حين نجد أن بعض المؤرخين بنفس الجامعة يجمعون على أن تاريخ إفريقيا بدأ مع التواجد الإمبريالي أي منذ منتصف القرن 19 م.

ومن خلال ما تقدم، يمكن القول أن المؤرخين الأوربيين لم يعطوا له العناية الكافية رغم أنه جزء لا يتجزأ من تاريخ الإنسانية، ويتجلى ذلك من خلال عدم إدراجه ضمن البرامج الدراسية الجامعية وتركه يتلاشى يومًا بعد يوم حتى بقي عبارة عن شذرات وهوامش لا تشفي غليل الباحثين في الشؤون الإفريقية. وبقي الحال على وضعه إلى غاية منتصف القرن العشرين عندما بادرت جامعة لندن إلى إدراج مقياس تاريخ إفريقيا ضمن البرنامج الجامعي.[5] كما تم فتح مركز للدراسات الإفريقية بجامع نورثيسترن بالولايات المتحدة الأمريكية.

وعادة ما كان تاريخ إفريقيا مرتبطا بتاريخ القوى الاستعمارية ومكتوبا بطريقة ذاتية، فآن الأوان أن يتكفل الأفارقة بكتابة تاريخهم لأن أهل مكة أدرى بشعابها. [6] وكما هو معلوم أيضا، فالكثير من المناطق الإفريقية لاسيما

وسطها وشرقها ظلت مجهولة إلى غاية منتصف القرن التاسع عشر عندما كتب بعض المغامرين والتجار ورجال الدين المسيحيين عن ممالك البحيرات الكبرى. فمملكة بورندي، وصفت لأول مرة سنة 1858 عن طريق المغامر رتشارد بورتن، أما مملكة بوغندا، فكتب عنها المغامر جون سبيك لأول مرة سنة 1862. [7] وعليه، يمكننا القول أن مصادر كتابات المؤرخين الأوربيين تعلق بكتابات هؤلاء المغامرين وأرشيف البعثات التبشيرية المسيحية سواء أكانت بروتستنتية أو كاثوليكية، إضافة إلى أرشيف الدول الاستعمارية. وعلى هذا الأساس، كتب الكثير من المؤرخين الأوربيين تاريخ إفريقيا حسب ميولهم مبتعدين كل البعد عن الموضوعية .

إن التواجد الإمبريالي بإفريقيا كان له أثره السيئ على واقع القارة السمراء، وأن ما تميز به من هيمنة خانقة واستغلال فاحش، قد يجعلنا نجزم أنه تسبب في إفقار الأهالي الأفارقة، كما أنه أحدث انقلابا داخل المجتمع الإفريقي بما أقدم عليه من سن لقوانين إستثنائية وتطبيق لسياسة الأرض المحروقة لمواجهة كل أشكال المعارضة بما فيها الإنتفاضات الإفريقية تارة وفرق تسد تارة أخرى قصد استمالة القبائل وتحويلهم إلى أداة طيعة تخدم مصالحها وتقف حائلا دون تطور الحركة الوطنية وتوحيدها.

وكانت الإمبريالية تجد صيغا لتبرير تواجدها بالقارة السمراء باستحداث مصطلحات تخدمها كالحماية، الإنتداب والوصاية. وكان الهدف من وراء ذلك كله إضعاف القارة السمراء وتدمير مقوماتها السوسيو– اقتصادية.

ومما هو جدير بالذكر أن الإمبريالية بنت استراتجيتها على طمس الثقافة الإفريقية، بل العمل على القضاء عليها. وعليه، سعت جاهدة إلى تدمير أشكال التواصل الذي ينمو من خلالها الضمير الجماعي، كما حاولت أن تجعل من سكان إفريقيا حشودا بشرية لا روح لها ولا تاريخ . وعلى هذا الأساس، كان الإمبرياليون وعلى رأسهم بعض المنظرين يرون أنه غلب على ثقافة الأفارقة سوى الذهنية البدائية التي لا تستطيع أن ترقى إلى مستوى

التفكير المنطقي. كما حاول الإمبرياليون فرض أسلوب معين من السلوكات خصوصا إذا ما علمنا أن الهيمنة الثقافية هي أشد مكرا وخداعا ولا يمكن إلا أن تكون أشد ضررا وأكثر فسادا وأعمق أثرا من السيطرة العسكرية.

وفي هذا السياق، سعت الإمبريالية أيضا، إلى خلق نخبة متشبعة بالفكر الإمبريالي، نخبة تمجد الحضارة الأوربية وتحتقر الثقافة الإفريقية .

ومن خلال ما تقدم، ولتسليط الضوء على بعض الحقائق التاريخية، فالمتصفح لمختلف الوثائق الخاصة بالمستعمرات لاسيما تلك المتعلقة بالتقارير الصادرة عن الحكام العامين، يلاحظ أن الإستعمار عمد إلى تجهيل الشعوب التي كانت خاضعة له بتبني سياسات مقصودة قصد تفقير وتجهيل الشعوب الإفريقية. فالمتصفح أيضا لمختلف ميزانيات المستعمرات، يلاحظ تخصيص ما قيمته1% من النفقات لقطاع التعليم وأكثر من 20 % لقطاعات أخرى لاسيما القطاع العسكري. [8]

وبناء على هذه المعطيات، نستنتج أن تخصيص موارد ضئيلة جدا لقطاع التعليم هو دليل قاطع على نية الإمبرياليين هي تجهيل الأفارقة. وعليه، يمكننا القول أن التعليم في إفريقيا لم يحظ بدعم السلطات الاستعمارية. ولتمرير سياسة تجهيل الأفارقة، عمد الإمبرياليون إلى ترك هذه المهمة للبعثات التبشيرية المسيحية التي غلب على منظومتها التربوية التعليم الديني قصد الحد من انتشار الثقافة العربية الإسلامية في غرب إفريقيا ووضع حد لنشاط التجار العرب وسلاطين عمان في شرق إفريقيا الذين تمكنوا من نشر تلك الثقافة إلى المناطق النائية بهذا الجزء من القارة السمراء.

وفي هذا السياق، عمدت البعثات التبشيرية المسيحية [9] التي نذكر من بينها جمعية بعثة لندن والأباء البندكتيين السويسريين والأباء البيض [10] الذين أرسلهم الكاردينال لافيجري سنة 1878 إلى منطقة البحيرات الكبرى لنشر

الديانة المسيحية وذلك عن طريق برامجها التعليمية والقضاء تدريجيا على الثقافة السواحلية المنتشرة هنالك بل والعمل على اضعاف اللغة السواحلية وكثير من اللغات الإفريقية بإلغائها من المدارس التي كانت تشرف عليها البعثات التبشيرية المسيحية .

والجدير بالذكر أن القوى الإستعمارية قد ساهمت إلى حد بعيد في تخلف الأفارقة الذين كانوا استنادا إلى بعض المصادر أقل تخلفا قبل التواجد الإمبريالي. وعليه، فقد الأهالي الأفارقة مهاراتهم الزراعية والصناعية التقليدية لأن إدخال وسائل الإنتاج العصرية التي انبثقت عن الانقلاب الصناعي قد جعل الأفارقة يتخلون عن حرفهم ويهتمون بزراعة المحاصيل النقدية ويبحثون عن العمل للتمكن من دفع الضرائب، الأمر الذي أثر على تركيبتهم الاجتماعية .

وعلى هذا الاساس،، يذكر الرئيس التنزاني الأسبق جوليوس نيريري في مؤلفاته أن الأفارقة ظلوا متخلفين ومستغلين أبشع استغلال، كما أنهم لم يشاركوا في حكم بلادهم إبان التواجد الاستعماري.[11] فالتنزانيون لم يستشاروا في المسائل الشائكة التي كانت لها انعكاسات خطيرة على تاريخ منطقة البحيرات لأن سلخ مقاطعتي رواندا وبورندي عن تنزانيا بعد الحرب الإمبريالية الأولى ومنحهما لبلجيكا في إطار الانتداب كمكافأة لها على مساعدتها لبريطانيا إبان تلك الحرب قد تسبب في حرب أهلية بين قبيلتي التوتسي والهوتو، والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء، كما أصبح ملفها بمثابة الشغل الشاغل لمنظمتي الأمم المتحدة والإتحاد الإفريقي.

وبناء على ما تقدم، يمكن القول أن النظام الاستعماري حمل في طياته بذور انفجار الوضع في منطقة البحيرات الكبرى الذي شمل أيضا دولة الكونغو الديمقراطية (الزائير سابقا) ناهيك عن المشاكل السوسيو – اقتصادية التي مازلت هذه المنطقة تتخبط فيها بشكل خاص وإفريقيا بشكل عام.

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أن التراث الإفريقي قد تأثر بالسيطرة الإستعمارية تأثيرا سلبيا عندما وضع الأوربيون أيديهم على المكتبات العامة والخاصة وسرقة الأرشيف والتحف الفنية التي زينت بها رفوف المتاحف الأوربية. وقام بهذا العمل الجنود والجواسيس والبعثات التبشيرية المسيحية التي عن طريقها تم تحويل التراث الثقافي المادي إلى المتاحف الأوربية، الأثرياء والنبلاء والضباط الذين أوكلت إليهم مهام الغزو. كما تعمد الإستعمار حرق المكتبات لاسيما مكتبة جامعة الجزائرالتي ضمت كنوزا لا تعوض مثل الكتب والوثائق الخاصة بتاريخ وحضارات إفريقيا .

2 – الحلول الممكنة للمحافظة على تراث القارة ومواكبة العولمة :

إن ما يميز علمنا اليوم أو الألفية الثالثة، هو بدون شك ظهور ما اتفق على تسميته **بالعولمة** التي تعد مشروعا حضاريا يهدف إلى فرض النموذج الغربي على العالم قصد الهيمنة العالمية وتفوق الحضارة الغربية على كل الحضارات الأخرى. **ويقصد بالعولمة أيضا، تفييد معنى الشيء وتوسيع دائرته لتشمل الكل أي اكتساب الشيء طابع العالمية.** وللعولمة جانبان، أحدهما إيجابي والآخر سلبي. فبالنسبة للجانب الإيجابي، يمكن القول أنها ظاهرة حضارية انبثقت كنتيجة لدخول العالم في عصر ثورة تكنولوجيات الاتصال والمعلومات التي أدت إلى تقلص العالم ليصبح قرية صغيرة بفضل سرعة المواصلات وتدفق المعلومات وسرعة الحصول عليها عن طريق الإنترنت والبريد الإلكتروني. وعليه، تسعى العولمة إلى تسخير العلم في خدمة الإنسان والحضارة. أما الجانب السلبي للعولمة، فيتجلى في كونها تهدف إلى السيطرة أو الهيمنة والتحكم بالسياسة والاقتصاد، وتمتد لتطال ثقافات الشعوب والهوية الوطنية والسعي لمحو الخصوصيات الثقافية للشعوب.

وللمحافظة على التراث الإفريقي، وتدارك ما فات، يتوجب على القارة السمراء تحديث وسائل الحفظ والتسجيل، وذلك بضرورة إدخال الوسائل التكنولوجية الحديثة المستعملة في مثل هذه العمليات ذات الأهمية البالغة في حياة الشعوب للحفاظ على الذاكرة رغم تعاقب السنين نذكر منها ما يلي :

1- تسجيل عدة نسخ للمحفوظات عبر الإعلام الآلي مع ضرورة ربطها بشبكة الأنتيرنات قصد تمكين الباحثين والمختصين من الإطلاع على هذا الأرشيف .

2 – تعيين مختصين أكفاء ذوي الإطلاع الواسع على الثقافة الإفريقية للقيام بمهمة نقل النصوص من الكتب القديمة إلى أجهزة الكومبيوتر.

3 – الإسراع في نقل التراث والأحداث التاريخية من الأشخاص الذين عايشوها لكي يتسنى نقلها بكل صدق وأمانة عبر الأجهزة السمعية البصرية.

وفي هذا السياق، تجدر الإشارة إلى إقدام بعض الدول الإفريقية على الاهتمام بهذا الموضوع لاسيما الحكومة الزيمبابوية التي أنشأت مركزا للحفظ عبارة عن تسجيل أشرطة فيديو تحتوي على أهم الوقائع التاريخية الشفهية.

وعلى هذا الأساس، يتوجب على المؤرخين الأفارقة مقابلة حاملي هذه المعلومات عن طريق الدعاية للبرنامج بواسطة وسائل الإعلام المرئية والبصرية، ثم يتولى هؤلاء المؤرخون تدوين هذه المقابلات وتحريرها قبل تصنيفها. وبهذه الوسائل تستطيع إفريقيا المحافظة على تاريخها وتراثها، وتجمع مادة مفيدة ابتداء من سلالة الأنساب وأهم أحداث التاريخ الاجتماعي بما في ذلك العادات والتقاليد والأغاني والموسيقى وما شابه ذلك.

4 – لا توجد في إفريقيا آثار على مستوى أوربا أو آسيا أين نجد أبنية أثرية من حجارة ضخمة إلا لو استثنينا شمال إفريقيا أو زمبابوي أو مدن شرق

إفريقيا التي شيدت على النمط العربي الإسلامي والواقعة على الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي.

وعليه، نجد أن اغلب البنايات الأثرية تتكون من الغضار والخشب، مواد لا ترحمها الطبيعة ولكن آثارها مازالت باقية إلى يومنا هذا رغم تعاقب السنين والحملات الاستنزافية التي تعرضت لها إفريقيا إبان التواجد الإستعماري بها. وعلى هذا الأساس، أضحت القارة السمراء مطالبة اليوم أكثر من أي وقت مضى بتظافر الجهود لإنشاء هيئة تطالب الدول الأوربية باسترجاع كنوز إفريقيا التي هي جزء من تاريخها وهويتها.

بيد أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا، هو أن هذه الكنوز مازلت تزين بها رفوف المتاحف الأوربية. كما يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية إبراز معالم الحضارة الإفريقية التي هي ضاربة في أعماق التاريخ عبر مختلف حقبه الزمنية. فالكثير من الإكتشافات الأثرية قد أثبتت أن إفريقيا كانت موطننا لكثير من الحضارات. وعليه، نجد أن كل من العصر الباليوليتي والعصر النيوليتي يؤكدان ما تركه الإنسان الإفريقي من آثار مازلت قائمة إلى يومنا هذا نذكر منها النقوش الصخرية والرسومات التي ترمز إلى بعض الحيوانات وحرفة الصيد. فكل هذه المظاهر تعبر بصدق عن التقنيات المستعملة في تلك العصور.

5 – يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية جمع الوثائق المتواجدة في مختلف دور المحفوظات في العلوم التاريخية والإدارية والإقتصادية والثقافية، ثم تثمين تلك المعلومات وترتيبها، إضافة إلى معالجة مسألة الارشيف الذي يضم نسخة واحدة بتطبيق تقنيات متقدمة كاستخدام المايكروفيلم. كما يتوجب مسايرة الأنشطة المتعلقة بعلم التوثيق في العالم، ومن ثمة تقديم المواد الأرشيفية الهامة للباحثين الافارقة لتصنيفها وتقويمها حتى يتمكنوا من كتابة تاريخ القارة السمراء بكل موضوعية ومبتعدين عن الذاتية.

6 – ضرورة التوسع في معرفة أصول القبائل الإفريقية عن طريق القيام بدراسات معمقة خصوصا إذا ما علمنا أن جل الدراسات التي قام بها المختصون الأوربيون ما هي إلا فرضيات. وعليه، شهدت إفريقيا إلى غاية التواجد الإستعماري الأوربي حركة كثيفة للقبائل الإفريقية. فهجرة قبائل البانتو[12] داخل القارة تواصلت لفترة تزيد عن ألف سنة، إضافة إلى أن القبائل الإفريقية قد تأثرت بالشمال عن طريق اتصالها بشمال إفريقيا، أما في الشرق، فكانت العلاقات وطيدة مع العالم الأسيوي بما في ذلك العالم العربي الإسلامي الذي كان تأثيره بارزا على الشريط الساحلي المطل على المحيط الهندي. [13]

وتشير بعض المصادر إلى وجود حضارة قديمة في الشريط الساحلي لشرق إفريقيا بحيث كانت تربط الأهالي الأفارقة علاقات تجارية مع الجزيرة العربية والهند قبل الميلاد. وتتطرق نفس المصادر إلى هجرات من جنوب الجزيرة العربية إلى جنوب إفريقيا للعمل في مناجم الذهب وربما ساهموا في بناء معالم وآثار مازلت قائمة إلى يومنا هذا نذكر منها آثار زمبابوي وبعض المدن الساحلية في شرق إفريقيا كممباسا ودار السلام.

7 – بما أننا نتناول موضوعًا حساسًا له علاقة وطيدة بضرورة المحافظة على التراث الثقافي الإفريقي لمواكبة العولمة، يتوجب على المختصين في الشؤون الإفريقية التعامل مع علوم أخرى كعلم الآثار الذي يبحث في مخلفات الماضي وبقاياه المادية من عمران وأدوات وآلات أي معرفة الثقافة الإنسانية، إضافة إلى علم النقوش أو الكتابات القديمة الذي يهدف إلى حل رموز الخطوط القديمة بدراسة وترجمة كل ما هو مكتوب أو مرسوم أو منقوش. أما علم الأنثروبولوجيا، فيهتم بثقافة الإنسان البدائي والسلالات البشرية وتوزعها، كما هو علم يهتم أيضا، بخصائص الجماعات البشرية. أما علم اللسانيات، فيساعدنا في التعرف على ماضي الشعوب الذي لا تتوفر فيه الشواهد المكتوبة من خلال الإهتمام بظاهرة اللغة أو اللهجة المتصلة بالنشاط

الإنساني. وعليه، يمكن للباحثين في الشؤون الإفريقية الإستعانة بهذا العلم لمعرفة أصول بعض اللغات واللهجات لاسيما تلك المتعلقة بقبائل البانتو في شرق إفريقيا أو قبائل أكان، دان، السينوفو وبيتي والبامبارا والماندنغ في غرب إفريقيا أو قبائل الشونا، نديبيلي، كزوسا والزولو في زمبابوي وجنوب إفريقيا. هذا بالإضافة إلى علوم أخرى كالجغرافيا وعلم الإجتماع والديموغرافيا التي تعد من العلوم الأساسية في مثل هذه المسائل.

8- الإعتماد على بعض المصادر العربية التي سدت الكثير من الثغرات وساعدت على كشف غوامض تاريخ إفريقيا لاسيما مروج الذهب لصاحبه **المسعودي** [14]، ذلك المصدر النفيس الذي يساعد المختصين في الشؤون الإفريقية على جمع مادة مفيدة حول تراث القارة السمراء. أما **البكري**، فيساعدنا على معرفة الكثير من المعلومات التاريخية الوافية حول إمبراطورية غانا. كما يمكننا الإستعانة ببعض العلماء الذين تركوا بصماتهم في ميدان البحث نذكر منهم الشيخ القاضي **محمد بن محمود** كعت الذي ولد سنة 1468 بمدينة تمبوكتو وعاصر **الأسقيا محمد الكبير الطوري** وألف كتابا ذا قيمة علمية كبيرة بعنوان " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتقريب أنساب العبيد من الأحرار " ويعود تاريخ هذا المصدرإلى القرن 16 م، والذي نعتبره مصدرا نفيسا للباحثين في الشؤون الإفريقية لانه خير شاهد لهذا العصر. [15]

ومن فطاحلة ذلك العصر نذكر **الشيخ عبدالرحمان بن عبد الله السعدي** (1596- 1655) الذي ألف كتابا يحمل عنوان "تاريخ السودان" سنة 1653 م، ويعد هذا المصدر من أهم المصادر التي تناولت تاريخ غرب إفريقيا بحيث يسلط الأضواء على الممالك الإسلامية في السودان ونبذة عن أخبارها ونشأة مدنها الراقية. كما تتبع تاريخ سنغاي وقبائل مالي والطوارق وشعب الفولاني وأرخ للسلاطين من أسرة الأسقيا. ولم يكتف السعدي

بالتأليف فحسب بل ترجم لحوالي مائتي عالم سوداني وعلى رأسهم شيخه أحمد بابا. (16)

ويمكننا ذكر أيضا الرحالتين **الإدريسي** و**إبن بطوطة** اللذين زارا إفريقيا ولاسيما شرقها، مالي، تمبوكتو وغاو. وقد اعطانا الإدريسي وصفا كاملا عن ميناء مومباسا الكينية في القرن12م، إضافة إلى مناجمها ومنازلها ومساجدها وصيد النمور فيها.

9- بما أن العالم أصبح عالم تكتلات كما هو الشأن بالنسبة لأوربا، يتوجب على الأفارقة النظر في هذه المسألة بكل جدية وتدعيم الإتحاد الإفريقي الذي رآى النور في الأونة الأخيرة واستحداث هيئة تهتم بالتراث وتشجع كل المبادرات الثقافية الهادفة إلى إحياء التراث الإفريقي، ومن ثمة استخلاص العبر.

وفي هذا السياق، وقّعت الكثير من الدول الإفريقية على اتفاقية حماية التراث الشفوي وغير المادي في أكتوبر 2003 خلال انعقاد المؤتمر العام لليونيسكو.

الخاتمة :

بناء على ما تقدم، يخلص الدارس إلى أن المحافظة على التراث الإفريقي ضرورة حتمية لمواكبة العولمة وتحدي الألفية الثالثة، ويتوجب على كل الأفارقة الإهتمام بمراكز جمع وحفظ الوثائق بالطرق العلمية الحديثة لأننا نلاحظ اليوم السباق الكبير بين الدول في إدخال التقنيات العصرية التي تسهل عملية إسترجاع الوثائق عند الحاجة إليها، حيث أصبح الإهتمام والعناية بها وبدور المحفوظات من الأمور الحضارية التي يقاس عليها تقدم الدول ومدى اهتمامها بتاريخها وإرثها الثقافي خصوصا إذا ما علمنا أن الفن الإفريقي قد

ترك بصماته ويعد عريقا له وزنه مما جعله **كالفيل الذي يترك بصماته عندما يمشي.** كما يتوجب اعتماد استراتيجية إقليمية لحفظ التراث وحمايته لأنه أمانة تاريخية تسلم للأجيال المقبلة كشاهد على مدى إسهامات أجدادهم في الحضارة الإنسانية. إن التراث الثقافي الإفريقي قد أبهر كل الفنانين على مستوى المعمورة، ولا يمكن فهمه وتذوقه إلا عبر إطار تاريخي، إجتماعي وفني الذي بواسطته يمكن حل الكثير من الألغاز التي تختبئ وراء كل أداة ومن ثمة التعرف على تاريخ الشعوب الإفريقية.

وفي هذا السياق أيضا، ولمواكبة العولمة التي لا ترحم الضعيف، ينتظر من الدول الإفريقية المحافظة على تراثها الثري لاسيما **آثار مملكة أكسوم،** أهرام زمبابوي، **مخطوطات تمبكتو وأدرار بالجزائر** (التي تضم الآلاف من المخطوطات) والآثار البرونزية المتواجدة في **بينين** أو ما يعرف **بالفن البلاستيكي الإفريقي القديم ببنين** أي تراث **إيفي،** إضافة إلى اللأقنعة التي تشتهر بها كوت ديفوار لا سيما **أقنعة قبائل غيري، سينوفو وأكان**[17] وبيتي.

كما يمكننا إضافة **النقوش الحجرية البوشمنية بناميبيا** التي يعود تاريخها إلى 400 سنة قبل الميلاد، وكذا **تماثيل نيجيريا والكونغو** التي تتميز بندرة أسلوبها، وكذا حضارة بوبو التي اشتهرت بها جماعات قبيلة بوبو Bobo في المنطقة المسماة اليوم بوركينا فاسو. وتضم قبيلة بوبو جماعات كثيرة من أشهرها بوبوفينغ Bobo-Fing أو بوبو السود، وبوبو أولي Bobo- Ule أو بوبو الحمر، وبوبو غبي Bobo-Gbe أو بوبو البيض أنتج فنانوها الأقنعة الجميلة المستخدمة عادة في الطقوس المختلفة ولا سيما الزراعية، ومعظم النماذج المعروفة هي من إبداع فناني جماعات بوبو السود من منطقة بوبو ديولاسّو .Bobo-Dioulasso وتميز أعمالهم طرازان مختلفان، الأول ذو بعدين، بأشكال هندسية وتجريدية، ملونة بالألوان الأحمر والأبيض والأسود. أما الطراز الثاني فإنه قريب من فن النحت البارز، ويتخذ شكل

قناع خوذة بيضوي الشكل ويعلوه أحياناً تمثال صغير يمثل إنساناً، ويضاف إلى ذلك استخدام مادة الخشب القاسي.

وعليه، يمكن القول أن الفن الإفريقي يلبي حاجة إجتماعية مرتبطة بطقوس خاصة .

ويتوجب على القارة السمراء المحافظة على عاداتها وتقاليدها لاسيما الرقص الشعبي والغناء التي هي مظاهر كلها تشهد على مدى قدم وعظمة التراث الثقافي الإفريقي.

إن المتتبع للشؤون الإفريقية، يلاحظ أن إفريقيا مازالت تعاني من آثار الإستعمار منها تلك المتعلقة بالنظم الاقتصادية التي ما فتئت تدمر مقوماتها باستنزاف للأرض والنبات والمواد الأولية التي مازالت مستغلة من طرف الدول الإستعمارية ألي يومنا هذا، إضافة إلى مخلفات تقسيم القارة السمراء بين القوى الإمبريالية دون استشارة أصحاب الحق الشرعيين، الأمر الذي أحدث خللا وساهم إلى حد كبير في ظهور بؤر توتر كثيرة في إفريقيا كما هو الشأن بالنسبة لأزمة البحيرات الكبرى، كوت ديفوار، دارفور والصومال.

وفي هذه الظروف السيئة، وللتمكن من حل مشاكل إفريقيا السياسية والسوسيو – اقتصادية والأمنية والثقافية، يجب على الأفارقة التحلي بروح التضامن وتشجيع المبادرات السياسية الهادفة إلى رص الصفوف باستحداث هيئات سياسية إفريقية ونظم وهياكل قادرة على حل الأزمات ومواكبة العولمة التي لا ترحم الضعيف.

وللدخول في الألفية الثالثة بكل إطمئنان، وتحدي العولمة، يتوجب على إفريقيا تشجيع المبادرات الإفريقية الهادفة إلى تحقيق الوحدة والإنسجام بتفعيل المؤسسات الإقتصادية والمالية الإفريقية كاستحداث بنك مركزي أفريقي،

وبنك إفريقي للإستثمار وصندوق نقد إفريقي، كما تحتاج إفريقيا إلى عملة موحدة وإلغاء الحدود الموروثة عن الإستعمار لتمكين انتقال السلع والخدمات بكل حرية، إضافة إلى مباركة المبادرات السياسية والسوسيو – اقتصادية الهادفة إلى رفع صوت وانشغالات القارة السمراء إلى مختلف المحافل الدولية لاسيما تلك المبادرة التي تبنتها إفريقيا مؤخرا والمعروفة **بالشراكة الجديدة من أجل تنمية إفريقيا (نيباد)**، وذلك بفضل المجهودات الجبارة **لفخامة رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة** وزعماء آخرين من أبناء هذه القارة مثل **تامو مبيكي** الرئيس الأسبق لجمهورية جنوب إفريقيا، و**أوباسنجو** الرئيس الأسبق لجمهورية نيجيريا الفيديرالية **وعبدالاي واد** رئيس جمهورية السنغال الذين مازالوا يضحون بكل ما يملكون من طاقة في سبيل المحافظة على مصالح القارة الإفريقية عن طريق توحيد الجهود والبروز كجبهة تستعمل قنوات الحوار مع الدول المتقدمة والتي تعد بمثابة أنجع الوسائل الحضارية لتقليص الهوة بين الدول المتقدمة والدول السائرة في طريق النمو وتمتين علاقات يغلب عليها طابع الثقة المتبادلة بين الطرفين.

الهوامش

1 – يعرف كذلك بالتقويم الميلادي الذي شرعت أوربا في اعتماده منذ سنة 1582 .

2 – يعرف بالتقويم الهجري الذي بدأ المسلمون في اعتماده لتوارخهم وجعلوا من هجرة الرسول (ص) بداية له.

3 – ومن الدول التي سعت جاهدة إلى الإهتمام بتراثها نذكر دولة ماليزيا التي شيدت مبنى المحفوظات الوطنية بكوالالمبور سنة 1982. فمن بين أنجع الوسائل لحفظ الوثائق هو إقدام السلطات الماليزية على تزويد المبنى بنظام لتكييف الهواء الذي يحافظ على درجة حرارة ورطوبة ثابتتين ويخفض من الأشعة فوق البنفسجية.

4 – Kiwanuka , M .S.M. The kings of Buganda. East African Publishing House , Nairobi , 1971. pp 1 – 200.

5- Oliver , Roland. History of of the outside world. An inaugural lecture delivered at School of Oriental and African Studies. University of London , May 1964. pp 1- 22 .

6 – يلاحظ الأن مطالبة بعض الدول الإفريقية باسترجاع أرشيفها كما هو الشأن بالنسبة لأوغندا وجامعتها ماكيريري التي تحصلت من بريطانيا على كمية هائلة من الأرشيف على شكل مايكروفيلمس .

7 – Chretien , J. P. L'Afrique des grands lacs. Flammarion , Paris , 2000. pp 16- 20.

8 – بكاي، منصف .الإحتلال البريطاني في إفريقيا. تانزانيا (تنجانيقا سابقا) نموذجا. دهر السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 .ص ص 212–213.

9 – وصلت أولى البعثات التبشيرية المسيحية البروتستنتية إلى إفريقيا في الخمسينات من القرن 19 م، بينما طلائع البعثات التبشيرية الكاثوليكية فقد وصلت في الستينات من نفس القرن. وشرعت هذه البعثات في فتح مراكز لها بالمدن الساحلية المطلة على المحيط الهندي، ثم بدأت في التوغل إلى الداخل سالكة الطرق التجارية التقليدية. أنظر

Coulson, Andrew. Tanzania: A political economy. Oxford University Press, Oxford , 1982.

10 – بدأ نشاط هذه البعثة سنة 1878 عندما أرسل الكاردينال لافيجري الآباء البيض إلى منطقة البحيرات الكبرى بسبب الصعوبات التي واجهها في شمال إفريقيا نظرا لكون الإسلام كان راسخا في تلك الربوع. وعليه، كلفه البابا الجديد ليو الثالث عشر بمهمة الإشراف على البعثات المسيحية الكاثوليكية في إفريقيا الوسطى ولاسيما في منطقة البحيرات، وليضع حدا لمنافسة البعثات التبشيرية الإفريقية لمدينة ليون الفرنسية والبعثات الإيطالية التابعة للراهب كمبوني المتمركزة بالسودان. وساعده في فتح بعض المراكز رؤساء القبائل. وللمزيد من التفاصيل أنظر:

Report on education in East Africa prepared by the Phels Stocks commission. London , 1929.

11 – Nyerere , Julius. Freedom and Unity. Oxford University Press , Oxford , 1966. p 41.

12 – وتجدر الإشارة إلى أن قبائل البانتو تتكلم لغات البانتوالتي هي أسرة لغوية كبيرة واحدة، تتشابه جميعا في مفرداتها وقواعدها.و يبدو أنها مشتقة جميعا من لغة واحدة سابقة يطلق عليها "**السابقة للبانتو**"(**proto-Bantou**) وكلمة **البانتو** ذاتها معناها الناس .فكلمة "**نتو**"(**ntu**) تعني رجلا، وكلمة "**با**"(**ba**) تدل على الجمع، لذا تستخدم أحيانا للدلالة على الشعب أو الجماعة. ويرى بعض المختصين أن هذه الأسرة اللغوية الضخمة تضم أسرا فرعية تنتشر عموما في شرق القارة واشهر لغاتها السواحلية كما تتواجد في جنوب غرب إفريقيا، وأشهر لغاتها هي لغة **لينجالا**، وهي اللغة الرئيسية في الكونغو الديمقراطية

(الزاير سابقا) حيث يتكلمها الملايين من السكان وتمتد البانتو إلى جنوب القارة وأشهرها **ناغوتي**. ومن لغات البانتو أيضا لغات **الباغنداوالباتورو** في أوغندا .

13- المسري (حسين علي) تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي 1258/749. دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع. ط1، بيروت، 1982. ص 213 .

14 – المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين). مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الرخاء، القاهرة، 1938.

15 – بوعزيز، يحي. تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى القرن 20 م. دار هومة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 2001. ص ص 197 – 198 .

15 – المرجع نفسه. ص ص 207 – 208.

16 – تنتمي **قبائل السينوفو** إلى المجموعة الفولتائكية نسبة إلى ما يعرف اليوم ببركينا فاسو، تتكلم لغة تعرف **بالسينار**، وهي أقدم المجموعات العرقية بساحل العاج،الأمر الذي أدى بالكثير من المختصين إلى الإعتقاد بأن الموطن الأصلي للسينوفو هو جنوب مالي الحالي وشمال شرق ساحل العاج. يعود تاريخهم إلى العصر النيوليتي. كما اشتهر السينوفو بمهاراتهم كحرفين خصوصا النقش على الخشب، الرسم وصناعة النسيج. أنظر Arvel, Anne. Cote d'ivoire. Les éditions Arthaud. Paris, 1990, PP 26-27.

17- من أهم المجموعات الإثنية في ساحل العاج والوافدة من غانا إبتداء من عصور يصعب تحديدها ولكن أكثرها توافدت على ساحل العاج منذ القرن 16م. ففي الشمال، إستقرت مجموعة منها تعرف بأبرون في بندوكو. أما قبيلة أنيي، فقد أسست عدة ممالك على طول الحدود الشرقية لساحل العاج ألى غاية الساحل. نفس المرجع ص ص 32 – 33

ببليوغرافيا

1 – المراجع العربية :

1- المسعودي (أبو الحسن على بن الحسين). مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الرخاء، القاهرة، 1938.

2- المسري (حسين علي) تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية بين العراق والخليج العربي/1258. دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع. ط 1، بيروت 1982.

3 – بوعزيز، يحي. تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن 16 م إلى القرن 20 م. دار هومة للطباعة والتوزيع، الجزائر، 2001

4 – بكاي، منصف .الإحتلال البريطاني في إفريقيا. تانزانيا (تنجانيقا سابقا) نموذجا. دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009 .ص ص 212–213.

2 – المراجع الأجنبية

1 - Apparurai A. Modernity at large:Cultural dimensions of globalization. Minneapolis Univ Press ,1996.

2 - Arvel, Anne. Cote d'ivoire. Les editions Arthaud. Paris, 1990, PP 26-27.

3 - Chretien , J. P. L'Afrique des grands lacs. Flammarion , Paris , 2000.

4 - Coulson , Andrew. Tanzania : A political economy. Oxford University Press , Oxford , 1982 .

5 - Croucher, Sheila L. (2004). Globalization and belonging: the politics of identity in a changing world. New York: Rowman of Littlefield.

6 - Kenyata, Jomo. Au pied du Mont Kenya. Trad. Presence Africaine, Paris, 1960.

7 - Kiwanuka , M .S.M. The kings of Buganda. East African Publishing House , Nairobi , 1971. pp 1 – 200.

8 - M'Bokolo , E. Afrique noire. Histoire et civilisations. T. II, Hatier-UPELF. 1992.

9 - Michel , M. Décolonisations et émergence du tiers monde. Hachette, 1993.

10 - Monteuil , V. L'islam noir. Une religion à la conquete de l'Afrique. Le Seuil , Paris , 1980.

11 - Morgan, W.T (ed) East Africa : Its people and resources. Oxford University Press , 1972.

12 - Morris-Jones, W.H and Fisher, J (ed) Decolonization and after. The British and Frensh experience. Franck Cass and co, London, 1980.

13 - Nsibambi, A (2001) "The effects of globalization on the state in Africa: Harnessing the benefits and minimizing the costs. Paper presented at UN General Assembly, second committee: Panel discussion on globalization and the state, November 2, 2001.

14 – Nyerere , Julius. Freedom and Unity. Oxford University Press , Oxford , 1966. p 41.

15- Oliver, Roland. History of of the outside world. An inaugural lecture delivered at School of Oriental and African Studies. University of London, May 1964. pp1- 22

16 - Report on education in East Africa prepared by the Phels Stocks commission. London , 1929.

17 - Rothstein, R. The weak in the world of the strong. The developing countries in the international system. Columbia University Press, New york, 1977.